٥
المُسلِمُ مَعَ أَوْلَادِهِ

تـمـهـيـد:

الأولاد قرة عين الإنسان في حياته، وبهجته في عمره، وأنسه في عيشه، بهم تحلو الحياة، وعليهم بعد الله تعلّق الآمال، وببركتهم يُستجلَب الرزق، وتتنزّل الرحمة، ويضاعف الأجر.

بيد أن هذا كله منوط بحسن تربية الأولاد، وتنشئتهم النشأة الصالحة التي تجعل منهم عناصرَ خير، وعواملَ برّ، ومصادرَ سعادة. فإن توافر للإنسان في أولاده هذا كله كانوا بحق زينة الحياة الدنيا، كما وصفهم الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(١).

ولهذا كان من دعوات النبي الصالحات لمَنْ يحبّ: الإكثارُ من المال والولد؛ فقد روى أنس رضي الله عنه أنه دخل على النبي ﷺ، ومعه أمه وخالته، فصلّى بهم النبي ﷺ، ثم دعا لهم بكل خير. فقالت أم أنس: يا رسولَ الله، خُوَيْدِمُكَ، أُدْعُ اللّهَ له، فدعا له بكل خير، وقال في آخر دعائه: «اللّهمَّ أكْثِرْ مالَهُ وَوَلَدَهُ وبارِكْ لَهُ»(٢).

أما إذا غفل الوالدان عن تربية الأولاد وتوجيههم الوجهة الصالحة كانوا بلاءً ونكَداً وعَنَتاً وشقاءً وهمّاً واصِباً، ووراءه السهرُ في الليل والتعب في النهار.

---

(١) الكهف: ٤٦.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

يُدْرِكُ مَسْؤولِيَّتَهُ الكُبْرَى إزاءَ أَوْلادِه:

والمسلم الحق الواعي يدرك مسؤوليته الكبرى إزاء أولاده الذين نَجَلَهُمْ وقدّمهم للحياة، إذ يسمع صوت القرآن يهتف به:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾(١).

وإذ يسمع صوت الرسول الكريم يضعه أمام مسؤوليته الكبرى في الحياة:

«كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُم مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإمام راعٍ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ راعٍ في أَهْلِهِ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والمَرْأَةُ راعِيَةٌ في بَيْتِ زَوْجِها ومَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِها، والخادِمُ راعٍ في مالِ سَيِّدِهِ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فكُلُّكُمْ راعٍ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِه»(٢).

إنها المسؤولية الشاملة التي طوّق بها الإسلام أعناق أبناء الحياة جميعاً، فلم تغادر منهم أحداً، وجعل بمقتضاها الوالدين مسؤولَيْنِ عن تربية أولادهما تربية إسلامية دقيقة، وتنشئتهم التنشئة الصالحة، القائمة على مكارم الأخلاق التي أخبر الرسول الكريم أنه ما بُعِثَ إلّا لتتميمها وتأصيلها بين الناس إذ قال:

«إنّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ»(٣).

وليس أدلّ على عظم مسؤولية الوالدين تجاه أبنائهما، وتنشئتهم على طاعة الله ورسوله وامتثال أمرهما، من تقرير العلماء: أن كل بيت يسمع قول الرسول الكريم: «مُرُوا أَولادَكُم بالصَّلاةِ، وهمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، واضْرِبُوهُمْ عليها، وهمْ أبناءُ عَشْرٍ...»(٤)، إن كل بيت يسمَع هذا الحديث ولا يأمر

(١) التحريم: ٦.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد، والإمام مالك في الموطأ، والإمام أحمد في المسند.

(٤) رواه أحمد وأبو داود، وإسناده حسن.

الأولادَ بـالصلاة متى بلغـوا السابعـةَ من العمر، ولا يضـربهم على تركهـا متى بلغوا العاشرة، هو بيت مقصّر مفرّط، الوالدان فيه آثمان مسؤولان أمام الله عن هذا التقصير وذلك التفريط.

ذلك أن البيت هو المحضَن الذي تَرِيشُ فيه الفِراخُ الـزُّغْبُ، وهو البيئـة الأولى التي يترعرعون فيها، وهـو الوسط الـذي تتكوّن فيـه ميولُهم وأمـزجتُهم وشخصياتهم. ومن هنا يبدو دور الوالدين الكبيـر في تعهّد تلك البـراعم الغضّة الغضيرة، ومدّها بالغذاء النافـع، والتوجيـه الأصيل الـذي يربّـي فيهـا الجسم والعقل والروح على السّواء.

يَسْتَخْدِمُ في تَرْبِيَتِهِمْ أَبْرَعَ الأَسَالِيب:

والـوالـد المسلم الحصيف ـ وأعني بـالـوالـد كـلًّا من الـوالـدين الأب والأم ـ يـدرك نفسيات أطفـاله، فيحسن التـأتّي إليها، والتـوغّل في عـوالمهـا الصافية البريئة، مستخدماً في سبيل صياغتها وتوجيهها أبرع الأساليب.

إنه يتحبّب إليهم بشتى الوسائل، فيدنو منهم، ويـراعي مستواهم العقلي والـزمني، فيلاعبهم، ويجـاملهم، ويمازحهم، ويسمعهم من كلمـات المحبـة والإيثار والحَدَب مـا تبتهج بـه نفوسهم فـإذا هم يحبونـه، ويقبلون على سماع تـوجيهه بلهفـة وحرارة وصـدق، وإذا طاعتُهم لـه وامتثـالُهم أمـرَه نـابعـان من القلب، وشتان ما بين طاعة قائمة على الحب والاحترام والتقدير والثقة، وبين طاعة قـائمة على العنف والقهـر والكبت والانصياع الـزجري، فـالأولى طاعـة دائمة وطيدة والثانية طـاعة مـوقوتـة هشّة، سـرعان مـا تزول وتتـلاشى بزوال الشدّة والعنف والزجر، أو بغيابها إلى حين.

وقد يظن بعض الناس أن تبسّط الوالد مع أولاده ومخالطتـه إيّاهم يخـلّ بأبوّته في أعينهم، ويزري بمقامه التربوي في نظرهم، وهذا خطأ محض؛ فإن هـذا الخلق الكريم مـع الأولاد هو الأسلوب التـربوي الحكيم النـاجـح الـذي

تدعو إليه اليوم التربية الحديثة، وقد دعا إليه الرسول ﷺ منذ خمسة عشر قرناً بقوله وفعله.

فقد كان ﷺ يصفّ عبد الله وعبيد الله وكُثَيِّراً بني العباس رضي الله عنهم، ثم يقول: «مَنْ سَبَقَ إليَّ فلَهُ كذا وكذا، فَيَسْتَبِقُونَ إلَيْه فيقَعونَ على ظَهْرِهِ وصَدْرِهِ فيُقَبِّلُهُمْ»(١).

وأخرج البخاري في الأدب المفرد والطبراني عن أبي هريرة أن النبي ﷺ أخذ بيد الحسن أو الحسين رضي الله عنهما، ثم وضع قدميه على قدمه، ثم قال: «تَرَقَّ».

وتتجلّى روح الرسول المربي العظيم أكثر ما تتجلّى في حمله الحسن والحسين رضي الله عنهما، وترفّقه بهما، وحنوّه عليهما، ضارباً المثل للآباء والأجداد في كل زمان ومكان، ليكونوا على خُلُق رضيّ كريم مع تلك الغرسات اللَّدْنة الغضّة، مهما كانوا عليه من وقار ومكانة وقدر؛ وذلك في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن شدّاد، قال: خرج النبي ﷺ وهو حامل حسناً أو حسيناً، فتقدم فوضعه، ثم كبّر في الصلاة، فسجد سجدة أطالها، فرفعتُ رأسي فإذا الصبيّ على ظهره، فرجعت في سجودي، فلما قضى صلاته قالوا: يا رسول الله، إنك أطلت، قال: «إنَّ ابْني ارْتَحَلَني فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حتّى يَقْضي حاجَتَهُ»(٢).

هكذا ينبغي أن يكون شأن المسلم مع أولاده، يخالطهم، ويترفّق بهم، ويحنو عليهم، ويمازحهم، ويدخل على قلوبهم السعادة والغبطة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وما وجد من وقته فراغاً وسعة.

---

(١) رواه أحمد. وقال الحافظ في التهذيب ٨/٤٢١: وهو مرسل جيد الإسناد.

(٢) رواه أحمد والنسائي بإسناد صحيح.

يُشْعِرُهُم بِحُبِّه وَحَنَانِه:

وإن من أولى واجباته الأبوية أن يشعرهم بالرحمة والحنان والعطف والحب، لينشأوا نشأة نفسية صحيحة، تعمر قلوبهم الثقة، ويشيع في نفوسهم الصفاء، ويغمر أخيلتهم التفاؤل.

والرحمة خلق إسلامي أصيل، كان من أبرز خلائق الرسول الكريم وشمائله الرفيعة، كما حدثنا أنس رضي الله عنه إذ قال: «ما رأيتُ أحداً كان أرحمَ بالعيالِ من رسول الله ﷺ، قال: كان إبراهيم مُسْترضَعاً له في عوالي المدينة، فكانَ ينطلقُ، ونحنُ معه، فيدخلُ البيتَ، فيأخذُه فيقبِّلُه، ثم يرجعُ»[(١)].

وتتسع رحمة الرسول الكريم بالبراعم المسلمة المتفتّحة، ويمتد رواقها الظليل فيشمل الصغار وهم يلعبون، فإذا هو يغمرهم بعطفه وحنانه، كما يروي أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان كلما مر بصبيان هشّ لهم وسلم عليهم[(٢)].

وكان من أقواله التربويّة الخالدة: «ليسَ مِنّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغيرَنا، ويَعْرِفْ حقَّ كبيرِنا»[(٣)].

ويروي أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قبّل الحسن بن علي، فقال الأقرع بن حابس: إنَّ لي عشَرَةً من الوَلَدِ ما قبّلتُ منهمْ أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»[(٤)].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد والحاكم، وإسناده صحيح.

(٤) متفق عليه.

لقد كان الرسول المربي العظيم يحاول دوماً، وهو يصوغ النفوس أن يفجّر فيها ينابيع الرحمة، ويفتح كوامنها على الحب والحنان، أخصّ خصائص الإنسان.

جاءه يوماً أعرابي فقال: أتقبّلون صبيانكم؟ فما نقبّلهم. فقال النبي ﷺ: «أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟»[١].

وتروي السيدة عائشة أم المؤمنين: «أن فاطمة كانت إذا دخلَتْ على النبي ﷺ قامَ إليها، فرحّبَ بها، وقبّلها، وأجلسَها في مجلسه. وكان إذا دخل عليها قامَتْ إليه، فأخذت بيده، فرحّبَتْ بِهِ، وقبّلَتْهُ، وأجلسَتْهُ مجلسَها. وأنها دخلتْ عليه في مرضِهِ الذي تُوفِّيَ فيه، فرحّبَ بها، وقبَّلَها»[٢].

إن المسلم الصادق لا يملك إزاء هذا الهَدْي النبوي العالي أن يكون متجهّماً لأولاده، جافّاً في معاملتهم، فظّاً في مخاطبتهم، حتى ولو كان في طبعه جَفاء، وفي خلقه جَفاف وكزازة؛ ذلك أن هذا الدّين بما جاء به من هُدًى منير، يرقّق القلب، ويفجّر ينابيع الحنان، ويذكي أُوار الحب، فإذا الأولاد قطع من القلب تسعى على الأرض، كما قال الشاعر[٣]:

وإنّما أَوْلادُنا بَيْنَنا ... أَكْبَادُنا تَمْشي على الأَرْضِ
إنْ هَبَّتِ الرِّيحُ على بَعْضِهِمْ ... تَمتَنِعُ العَيْنُ مِنَ الغَمْضِ

وإذا الوالدان ذوب عاطفة، ودَفْقَةُ حنان، ومَوْجَةُ رعاية وتضحية واحتضان.

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البخاري.
(٣) البيتان في شرح الحماسة للتبريزي ١/٢٧٥لحِطّان بن المُعَلّى.

يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ بِسَخَاءٍ وَطِيبِ نَفْسٍ :

على أن الإسـلام لا يكتفي بعاطفـة الوالـدين الفـطريـة وحنـانِهمـا على الأولاد، إذ ربمـا يعرض في الحيـاة ما يلهي عن الـولـد، ويصـرف الـوالـدين أو أحـدَهما عن التضحيـة في سبيله بطيبـات الحياة، أو تقسـو الأيام، ويخشن العيش، ويستحكم الإمـلاق، فيتذمّـر الوالـدان أو أحدهمـا من ثِقَل التَّبِعـات، وفـداحة الأعبـاء، وبَهْظ النفقات؛ ولهـذا كله رفد الإسـلام عاطفـة الـوالـدين الفـطرية بمـا أعدّه لهمـا من ثواب عـظيم، تهون أمـامه التضحيـات، ويصغـر العذاب ويتلاشى البؤس والإملاق.

عن أمّ سَلَمة رضيَ اللَّهُ عنها قـالَتْ: قُلْتُ: يا رسـولَ الله، هَلْ لي أَجْـرٌ في بَني سَلَمَةَ أَنْ أُنْفِقَ عليهمْ، ولستُ بِتاركِتِهمْ هكـذا وهكذا؟ إنّمـا هـمْ بَنِيَّ، فقالَ: «نَعَمْ لَكِ أَجْرُ ما أَنْفَقْتِ عليهِمْ»[1].

وعن أبـي مَسْعـود البَدْريّ رضيَ الله عنـه عن النبـيّ ﷺ قالَ: «إذا أَنْفَقَ الرَّجُلُ على أَهْلِهِ نَفَقَةً، يَحْتَسِبُها[2]، فهيَ لهُ صَدَقَةٌ»[3].

بـل إن الإسلام ليجعـل النفقة على الأهـل والعيال أفضـل وجوه النفقـة وأعـظمهـا أجـراً، نـرى مصــداق ذلـك في الحـــديث الـذي رواه مسلم عن أبـي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«دينارٌ أَنْفَقْتَهُ في سبيل اللّهِ، ودينارٌ أَنْفَقْتَـهُ في رَقَبَةٍ، ودينـارٌ تَصَدَّقْتَ بِـهِ على مِسْكينٍ، ودينـارٌ أَنْفَقْتَـه على أهْلِكَ، أعـظمُهـا أجْـراً الـذي أَنْفَقْتَـهُ على أهْلِكَ».

---

(١) متفق عليه.

(٢) أي يقصد بها وجه الله والتقرب إليه.

(٣) متفق عليه.

وفي رواية أخرى لمسلم: «أَفْضَلُ دينارٍ يُنْفِقُهُ الرّجلُ دينارٌ يُنْفِقُهُ على عِيالِهِ، ودينارٌ يُنْفِقُهُ على دابَّتِهِ في سَبيلِ اللّهِ، ودينارٌ يُنْفِقُهُ على أصْحابِهِ في سَبيلِ اللّهِ».

وإن نفس المسلم الحق الصادق لتطيب وترتاح وتسعد بالنفَقة على العيال، إذ تستيقن أن ما من نفقة ينفقها المسلم على عياله أو غيرهم، يبتغي بها وجه الله إلا أعظم الله له فيها الأجر، حتى اللقمة يرفعها الرجل إلى فم امرأته متودّداً ملاطفاً مداعباً، له فيها أجر، يؤكد ذلك الحديث الذي رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له:

«وإنّكَ لَنْ تُنْفِق نَفَقَةً تَبْتَغي بها وَجْهَ اللّهِ إلاّ أُجِرْتَ بِها، حتّى ما تَجْعَلُ في في آمْرَأتِكَ»(١).

والمسلم الصادق لا يستطيع أن يتخلّى عن عياله، ويجعلهم في فاقة وعسر وضياع، وهو يسمع صوت الرسول العظيم يهدّد الرجال المتخلّين عن مسؤولياتهم العائليّة، وينذرهم بأوخم العواقب، وأشد أنواع الإثم والعقاب:

«كَفَى بالمَرْءِ إثْماً أنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقوتُ»(٢).

لا يُفرِّقُ في حُنُوِّهِ ونَفَقَتِهِ بَيْنَ البَنِينَ والبَنَاتِ:

وقد يضيق بعض الناس ذرعاً بالبنات، ويتمنون لو أن الله ما رزقهم سوى الصبيان، ولم يَدْرِ هؤلاء الثواب العظيم الذي أعدّه الله للوالد الذي رزقه البنات، فصبر عليهنّ وأحسن تربيتهنّ، وفاضت نفسه بالحنان عليهنّ. ولو علموا هذا الثواب الذي ينتظر أبا البنات البارّ الكافل الرحيم لغَبطُوه عليه، وتمنّوا لأنفسهم مثله.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم وأبو داود وغيرهما.

يقول الرسول ﷺ: «مَنْ كانَ لَـهُ ثلاثُ بَنـاتٍ، فَصَبَرَ عليهنَّ، وأَطْعَمهنَّ وسَقاهنَّ وكَساهُنَّ من جِدَتِه، كُنَّ لَهُ حِجاباً مِنَ النّار يومَ القِيامَةِ»(١).

وفي روايـة: «مَنْ كان لَـهُ ثَلاثُ بنـاتٍ يُؤْويهنَّ، ويَكفيهنَّ، ويَرْحَمُهنَّ، فَقَدْ وجَبَتْ لَهُ الجنّةُ البَتَّةَ، فقالَ رجلٌ مِنْ بعضِ القَوْمِ: واثْنَتَيْنِ يا رسولَ الله؟ قالَ: «واثْنَتَيْنِ».

فـأيّ أب يتـأفف من تـربيـة البنـات والإنفـاق عليهن بعـد أن يسمـع ما أعدّه الله له من أجر ونعيم؟.

ويلحظ الإسلام، وهو دين الحياة الذي يعالج واقـع الناس ومشكـلاتهم في كل زمان ومكان، أن البنت قد تُطَلَّق وتعود إلى بيت أبيها، وقد يكون أبوها في عسـر وفاقـة وضيق، من قلة في الدّخـل، أو كثـرة من الـولـد، فيضـع لـه الإسـلام البلسم الشـافي لجـراح نفسـه المعـذَّبـة المكـدودة، ويقشـع عنهـا ما يساورهـا من هم ونصَب وعذاب، إذ يبيّن لهـذا الوالـد ذي العَيْلَة أن إنفاقـه على بنته المردودة إليه من أعظم الصدقات وأقرب القربات إلى الله.

يقـول الرسـول الكريم ﷺ لسـراقة بن جُعْشُم: «ألا أَدُلُّـكَ على أَعْـظَمِ الصَّـدَقةِ، أو مِنْ أَعْـظَمِ الصَّدَقَـة؟» قال: بلَى، يـا رسولَ الله! قـالَ: «ابنتُـكَ مَرْدودَةً إليكَ، ليسَ لَها كاسِبٌ غَيْرُكَ»(٢).

فأين هذا الرّيُّ العاطفيّ النبيل الذي يحـظى به الأولاد في دنيـا الإسلام من جفاف الحياة المـادية الـذي يعانيـه الأولاد في الغرب، إذ مـا يكاد الـولد، صبيّاً كان أو بنتاً، يكمل الثامنة عشرة من عمره حتى يخـرج من محضن أبويـه الدافىء، ليلقى الحياة المادية القاسية، ويـواجه أعـاصير الكسب، ولمّـا يشتدّ عودُه، ولمّا ينهل من منهل الحنان العائلي ما يرويه!!.

(١) رواه أحمد في مسنده بإسناد صحيح.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد.

إنه الفرق البعيد الشاسع بين تشريع الله الذي جاء لسعادة الإنسان، وتشريع البشر القاصر الذي شقي به الإنسان.

ولا بدع أن نجد في الغرب، نتيجة لهذا التشريع المادي، جيوش المنحلّين التائهين من الشبّان، وجموع العاثرات من الأمهات غير المتزوجات من الفتيات البائسات الضائعات، وأعداد هؤلاء وأولئك في تصاعد مستمر على مرّ الأيام.

مُفَتَّحُ العَيْنَيْنِ عَلى كُلِّ مَا يُؤَثِّرُ في تَكْوِينِهِمْ وتَوْجِيهِهِمْ:

والوالد المسلم الواعي مفتّح العينين على أولاده، يعرف ما يقرأون وما يكتبون، ويعرف هواياتهم التي اختاروها لأنفسهم، أو لفَتَهم هو إليها ونمّاها فيهم من حيث لا يشعرون، ويعرف رفاقهم الذين يلازمونهم، أو يقضون معهم معظم الأوقات، ويعرف الأماكن التي يرتادها أولاده في أوقات الفراغ، يعرف هذا كله من حيث لا يشعرون برقابته عليهم، فإذا ما وجد انحرافاً منهم في مطالعة، أو هواية، أو تعلّق برفيق سوء، أو ارتياد لأماكن مشبوهة، أو اعتياد بعض العادات الضارّة كالتدخين، أو العكوف على الألعاب المكروهة أو المحرّمة، مما يقتل الوقت، ويهدر الطاقة، ويعوّد الناشيء على الفراغ واللهو والتفاهة، إذا ما آنس الوالد شيئاً من ذلك في أولاده، ردّهم إلى الجادّة برفق وحكمة وحزم، وسدّدهم إلى الصواب بلباقة وإقناع وجدّ.

ذلك أن كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري.

ومن هنا تبرز مسؤولية الوالدين في صياغة عقل المولود وتكوين شخصيته وتربية نفسه بملاحظة العوامل التربوية المؤثّرة المذكورة آنفاً.

فالكتاب الذي يعكف على مطالعته الأولاد ينبغي أن يكون مفتّحاً

لأذهـانهم، مكوِّنـاً لنفوسهم على مكـارم الأخلاق، مـزوِّداً شخصياتهم بـالمثل العليا، لا أن يكون مغتالاً لعقولهم، مفسِداً لِفِطَرِهم، مطفئاً جَذَواتِ الخير في نفوسهم.

والهـوايات ينبغي أن تكـون منمّية جـوانب الخير في نفـوسهم لا جوانب الشرّ، مشعِلةً جمرات الحق في أفئدتهم لا جمرات الباطل، مربّية فيهم الذوق السليم لا الذوق السقيم.

والرفيق ينبغي أن يكون قائداً إلى الجنة لا إلى النار، مـرشِداً إلى الحق لا إلى الباطل، هادياً إلى الرشد والتسامي والنجاح والبر، لا إلى الغيّ والهبوط والخيبة والعقوق، وكم من رفيق جرّ رفاقـه إلى مزالق السـوء ومنحدرات الشـرّ ومهاوي الرذيلة، والآباء عن أولادهم غافلون، وما أحكَمَ قولَ الشاعر عَدِيّ بن زَيْد العِبادِيّ في الصاحب والقرين[1]:

إذا كنتَ في قَوْمٍ فصاحِبْ خيـارَهُمْ ولا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مع الرَّدي
عنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ وسَـلْ عَنْ قَرِينِـهِ فكُـلُّ قَـرِينٍ بـالمُقـارَنِ يَقْتَـدي

وهكـذا فعين الوالـد المسلم الـواعي تلحظ في تـربيتـه لأولاده الكتـاب والمجلة والرفيق والهواية والمدرسة والأساتذة والنادي ووسـائل الإعـلام، وكلّ ما له تأثير في تكـوين شخصيات أولاده وتـربية عقـولهم ونفوسهم وعقيـدتهم، وتتـدخّل عنـد اللزوم سلباً أو إيجـاباً، كيـلا تتعثّر العملية التربـويـة لـلأولاد، أو تُصاب بعراقيل أو أمراض أو مشوّهات.

ومن هنا نستطيـع تفسير نجـاح بعض الأسر في تـربية أبنـائها، وإخفـاق بعضهـا، فالأسـر الأولى شعرت بمسؤوليتهـا إزاء أولادها، فـأولتهم عنـايتهـا، فكانوا خيراً عليها وعلى المجتمع والناس، والثانية لم تشعر بمسؤوليتها هـذه،

---

(١) ديوان عدي: ١٠٧.

فأهملتهم، فكانوا شراً واصِباً عليها وعلى المجتمع والناس، وبلاءً يلاحقها في هذه الحياة وبعد الممات، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾(١).

وما كان الأولاد ليكونوا أعداءً لآبائهم لو أن الآباء استقاموا على الطريقة، وعرفوا مسؤولياتهم إزاء أولادهم، وقاموا بتبعاتها حق القيام.

يُسَوّي بَيْنَهُمْ:

ومن أسلوب التربية الحكيم للأبناء التسويةُ بينهم، وعدمُ تفضيل أحدهم على الآخر في الأمور كلها، ذلك أن الولد الذي يشعر بالتسوية والعدل بينه وبين إخوته ينشأ صحيح النفس، بريئاً من عقد النقص، لا يحقد على إخوته، ولا تأكل قلبه الغيرةُ والحسد، بل يشيع في نفسه الرضا والتسامح والإيثار والبرّ وحب الغير، وهذا ما حضّ عليه الإسلام، وأمر به الوالدين.

روى الشيخان عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إني نَحَلْتُ ابني هذا غلاماً كان لي. فقالَ رسولُ الله ﷺ: «أكُلَّ وَلدِكَ نَحَلْتَهُ مثلَ هذا؟» فقال: لا، فقال رسولُ الله ﷺ: «فأرْجِعْهُ»، وفي رواية: فقال رسولُ الله ﷺ: «أفَعَلْتَ هذا بولدِكَ كُلِّهِمْ؟ قال: لا، قال: «اتَّقوا اللَّهَ واعْدِلوا في أَوْلادِكُمْ»، فرجعَ أبي فردّ تلك الصدقة. وفي رواية: فقال رسولُ الله ﷺ: «يا بِشْرُ، أَلَكَ وَلَدٌ سِوى هذا؟»، قال: نعم، قال: «أكُلَّهُمْ وَهَبْتَ لَهُ مِثْلَ هذا؟» قال: لا، قال: «فلا تُشْهِدْني إذاً، فإنّي لا أَشْهَدُ على جَوْرٍ»، ثم قال: «أيَسُرُّكَ أنْ يكونوا لَكَ في البرِّ سَواءً؟» قال: بلى، قال: «فَلا إذاً»(٢).

---

(١) التغابن: ١٤.

(٢) متفق عليه.

ومن هنا كان المسلم التقي عادلاً بين أولاده، لا يفضّل أحدهم على الآخر في هبة أو نفقة أو معاملة، وبذلك تلهج ألسنتهم جميعاً بالدعاء له، وتخفق قلوبهم بحبّه، وتعمر نفوسهم ببرّه وإجلاله وإكباره.

يَغْرِسُ فِيهِم الأَخْلَاقَ العَالِيَةَ:

وبهذه النفوس الطافحة بالبِشْر والرضا والقناعة والبرّ، يستطيع الوالد أن يرقى بأولاده صُعُداً في مدارج المُثُل العليا والمكارم الإنسانية الرفيعة، فيغرس فيهم الأخلاق العالية من حبٍّ للآخرين، وحَدَبٍ على الضعفاء، وصِلَةٍ للأرحام، واحترامٍ للكبير، ورحمةٍ بالصغير، وارتياحٍ لفعل الخير، ورغبةٍ في إشاعة العدل بين الناس، وما إلى ذلك من مكارم الأخلاق؛ ذلك أن الخير لا يندفع إلّا من النفوس التي ارتوت منه، وفاقِد الشيء لا يعطيه، وصَدَقَ مَنْ قال: «الصَّلاحُ مِنَ اللهِ، والأَدَبُ مِنَ الآباء»(١).

إن الوالد المسلم الحصيف يعرف كيف يتسرّب إلى نفوس أبنائه، ويغرس فيها الحكمة والخلق القويم، مستخدماً في ذلك الأساليب التربوية الحكيمة، من قدوة مُثلى مَحَبَّبة، وتبسّط ومخالطة وحسن تعهّد، ورحمة وتواضع وبِشْر، وحب واهتمام وتشجيع، وعطف ومساواة وعدل، ونصح وتسديد وإرشاد، في لين من غير ضعف، وشدّة من غير عنف، وبذلك ينشأ الأولاد في جوّ كلّه برٌّ ورعاية وحنان، ومثل هذا الجوّ لا بدّ أن يعطي أولاداً أبراراً، أوفياء، صالحين، أسوياء الشخصيّة، مفتّحي الأذهان، قادرين على العطاء، مُهَيَّئين لتحمّل المسؤوليات. وهذا بَدَهيٌّ في كل أسرة تربَّتْ على مبادىء الإسلام، وتأدّبت بأدب القرآن، وصدق الله العظيم: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً؟﴾(٢).

---

(١) الأدب المفرد للبخاري: ٩٢.

(٢) البقرة: ١٣٨.